# الفلسفة وخطاب النهايات

**د. موسى عبد الله**
**جامعة سعيدة**

**الملخص:**

لقد شهدت البشرية في النصف الأخير من القرن العشرين، نهاية حقبة هامة، امتدت قرابة قرنين من الزمان، إنها حقبة الثورات والتحوُّلات الكبرى، سواء على مستوى التوجُّهات الجديدة، التي عرفتها المجتمعات البشرية في مجال اختيار مصائرها، أو على مستوى سيرورة الفكر وتقدم العلوم والمعارف والتكنولوجيات. وحصيلة هذه العوامل متضافرة، فرضت على الفكر الإنساني المعاصر، ضرورة إعادة النظر، في كثير من قيمه الأخلاقية والسياسية، التي سادت حتَّى الآن. منها مجموعة من التساؤلات، عن ملامح الفكر الفلسفي، وعن السمات العامة، للجدال الدائر حاليا، بين الفلسفة والأخلاق، وحول موضوع مظاهر التقدم العلمي المعاصر، وانعكاساته على الإنسان، وعلى الثقافة، وعلى القيم. إنها ظروف وشروط جديدة تعاظمت فيها سلطة العلم والعلماء، وهوت فيها سلطة الحقائق التقليدية والقيم المطلقة.

فهل بإمكان الفكر الفلسفي والفلسفة تحديدا، أن تستعيد اليوم دورها التنويري وتقوم بدور مماثل لذلك الذي قامت به في عصر التنوير؟. إزاء المشكلات العميقة التي تواجه البشرية؟ علما، أن الفلسفة آنيا لم تعد تصبو إلى القول في كل شيء كما كانت في السابق. خاصة مع ازدياد الحاجة للتخصص، وقبل ذلك تعدد المناهج العلمية بتعدد الظواهر والخروج عن التأمل العقلي إلى نوع من البحث التجريبي المقنن والدقيق. لقد استقل البحث البيولوجي والفيزيائي والنفسي والرياضي والاجتماعي.. يبدو أن دورها انحصر في التأريخ لمباحثها التي عُرفت بها. أمام صعود العلوم والدين والأيديولوجيا التي راحت

تطـــرح نفـــسها بـــدائل للفلسفة في المعرفة والتصور والتغيير، كما في التصدي لإشكالات الكون والمجتمع والمصير.

لقد حققت الفلسفة انتصارات عظيمة خلال أوائل القرن العشرين وأواسطه، مـــن خلال التقدم الباهر للفلسفات الوضعية والعقلانية والوجودية... حيث أثبت الفكـــر الفلسفي عبر تاريخه المديد حيوية وقدرة على بناء تصورات شاملة للوجود الإنـــساني وحـــدود المعـــرفة الإنـــسانية، والوقوف على منطق التحول والتطور والـــصيرورة في التاريخ، ورصد الثابت والمتحوِّل في واقع الأفراد والجماعات، كما في تـــوجهات العلـــوم وحدود قدراتها واكتشافاتها. كما استطاعت الإيديولوجية الماركـــسية أن تتحوّل إلى دليل لحركات سياسية واجتماعية بدّلت العالم لحقبة من الـــزمن وتـــركت آثارهـــا في أكثـــر من مجال من مجالات النشاط الإنساني فكراً وممارسة... إلا أن قدر الفكر الفلسفي اليوم اختزل في سؤال النهايات وخطاباتها، وكأن قدره أصبح محصورا دائماً في مواجهة الأبواب الموصدة والأسئلة المستحيلة.

على اعتبار، أن الإنسان قد أخفق حتى الآن في إقامة علاقة عقلانية ومتوازنة، ســـواء بينه وبين جنسه أو بينه وبين الطبيعة أو بينه وبين المستقبل، إنه تناقض حاد ذلـــك الـــذي يشعر به الفيلسوف، إذ هو من جهة لا يستطيع التخلي عن الإيمان بإمكانـــية وجـــود فلـــسفة كونـــية، أي لا يستطيع التخلي عن مهمته كموظف للإنـــسانية. ولكنه يشعر من جهة أخرى بأن هذه القناعة لا تصمد طويلا خارج دائـــرة الفلاســـفة. لقد أصبح الشك سائدا وقائما في قيمة وإمكانية وجود فلسفة كونـــية. إنهـــا مسؤولية مزدوجة تعترض سبيل الفيلسوف، فلا هو بالكاشف عن حقيقة وجوده كفيلسوف، ولا بالكاشف عن "الوجود الحق للإنسانية"...

وباختصار شديد، ما مستقبل الفلسفة؟.

لقد شهدت البشرية في النصف الأخير من القرن العشرين، نهاية حقبة هامة، امتدت قرابة قرنين من الزمان، إنها حقبة الثورات والتحوُّلات الكبرى، سواء على مـــستوى الـــتوجُّهات الجديـــدة، الـــتي عرفتها المجتمعات البشرية في مجال اختيار مصائرها، أو على مستوى سيرورة الفكر وتقدم العلوم والمعارف والتكنولوجيات. وحـــصيلة هـــذه العوامل متضافرة، فرضت على الفكر الإنساني المعاصر، ضرورة إعـــادة النظر، في كثير من قيمه الأخلاقية والسياسية، التي سادت حتَّى الآن. منها

مجموعة من التساؤلات، عن ملامح الفكر الفلسفي، وعن السمات العامة، للجدال الدائـــر حالـــيا، بـــين الفلسفة والأخلاق، وحول موضوع مظاهر التقدم العلمي المعاصـــر، وانعكاســـاته علـــى الإنسان، وعلى الثقافة، وعلى القيم. إنها ظروف وشـــروط جديدة تعاظمت فيها سلطة العلم والعلماء، وهوت فيها سلطة الحقائق التقليدية والقيم المطلقة...

فهـــل بإمكـــان الفكـــر الفلسفي والفلسفة تحديدا، أن تستعيد اليوم دورها التنويري وتقوم بدور مماثل لذلك الذي قامت به في عصر التنوير؟ إزاء المشكلات العمـــيقة التي تواجه البشرية؟ علما، أن الفلسفة آنيا لم تعد تصبو إلى القول في كل شيء كما كانت في السابق. خاصة مع ازدياد الحاجة للتخصص، وقبل ذلك تعدد المـــناهج العلمـــية بتعدد الظواهر والخروج عن التأمل العقلي إلى نوع من البحث التجريبـــــي المقـــنن والدقيق. لقد استقل البحث البيولوجي والفيزيائي والنفسي والرياضـــي والاجتماعي... يبدو أن دورها انحصر في التأريخ لمباحثها التي عُرفت بهـــا. أمـــام صـــعود العلوم والدين والأيديولوجيا التي راحت تطرح نفسها بدائل للفلـــسفة في المعرفة والتصور والتغيير، كما في التصدي لإشكالات الكون والمجتمع والمصير.

إن الـــتحولات العالمـــية الـــراهنة على كل المستويات السياسية والاقتصادية والثقافية والفكرية تشكل تحدياً راهناً للفكر الفلسفي وتصدمه من جديد بأسئلة لا يملـــك خياراً في التنحي إزاءها أو التنصل من التفكير في أجوبة تتلاءم مع حجمها والتهديد الذي ترتبه على مستقبل الإنسان وشكل تعامله مع نفسه ومع المجتمع ومع الطبيعة. فثمة عالم جديد يتسم بحركة متسارعة تصل إلى حد الانقلاب في الأعراف والمفاهـــيم والتصورات السائدة. فهل يمكن أن يبقى الفكر الفلسفي غائباً إزاء هذه الـــتغيرات متعالـــياً على الواقع وتحولاته، مكتفياً بما أبدعه عبر تاريخه من تصورات عقلانية وما أنجز من مفاهيم كلية ونظرية؟

لقـــد أقلعـــت الفلـــسفة اليوم عن ادعاءاتها المعرفية التي لازمتها طوال تاريخها. فالحكمـــة لم تعد مثالا أعلى للفيلسوف، لأن الفلسفة ذاتها فَقدَت من موضوعها في التوصّـــل إلى حكمة خالدة. لقد اغتربت عن مجتمعاتها، كما اغتربت هذه المجتمعات عـــنها. بل وانفصلت حتى في علاقتها مع المؤسسة (السياسية أو النخبوية) لم تعد إلا

جـــزء مـــن الترف الأكاديمي الذي يستكمل به "البريستيج" الثقافي، أو مجرد خطاب محصور بين الجدران الجامعية في أحسن الأحوال... فلا خطر منها ولا أثر لها. ولعل الـــسبب الأعمـــق هو الاعتقاد بعجزها عن التأثير في مجرى الأحداث العامة والرأي العام، أو الحياة الخاصة للمواطنين المشغولين عنها بهمومهم الخاصة والعامة... وإلا ما مصير الأسئلة المطروحة على الفكر الفلسفي في المرحلة الراهنة؟ كسؤال **غائية العلم**، فهـــل سيقود التطور العلمي الراهن إلى سعادة الإنسانية ورفاهها أم على العكس من ذلـــك؟ و**ســـؤال الطبيعة**، فهل سيغير الإنسان المعاصر نظرته إليها باعتبارها امتداداً لوجـــوده الإنساني، أم هي عالمٌ غريب عنه قابلاً للتحكم به من دون أية ضوابط...؟ وكـــذا **سؤال المعنى والقيمة**، أي أفق يجري نحوه تطور الإنسانية وتقدمها؟ هل هو الإنـــسان الفـــرد بالمفهـــوم الليبرالي باعتباره القيمة الأولى والأخيرة والهدف النهائي للـــتطور أم هو المجتمع أم الأمة أم الإنسانية بأسرها؟ وهل الصراع والقوة هما اللذان سيحددان المصير الإنساني أم التكافل الاجتماعي والهم المشترك؟ ومنها **سؤال الهوية** فهـــل ســـيتجه التطور الإنساني نحو هوية كونية أممية أم سيكون التشبث بالهويات القومية والإثنية والطائفية هو الرد المضاد على ثورة التواصل العولمي؟...

إنـــه سؤال حرج، خاصة ذلك الذي يتعلق بنهاية الفلسفة... ويتوافق في الآن مـــع حديث النهايات في كل اتجاه: نهاية التاريخ، نهاية الأيديولوجيا، نهاية المثقف، نهاية الداعية، وغيرها من النهايات التي تشير إلى أن ثمة تحولاً في الفكر الإنساني قد حـــدث ويجـــب قراءة مفاعيله وأبعاده. ولم يكن غريباً أن يعيد الفيلسوف "جيل دولوز" طرح سؤاله الكبير من جديد: ما الفلسفة؟ ليذهب إلى أن مجال الفلسفة إنما هـــو «فن صياغة وإنشاء وصناعة المفاهيم». أو سؤال "جاك دريدا"، كيف يمكن فهم خطاب النهاية أو الخطاب حول النهاية؟ على اعتبار أن الخطاب حول النهاية، هـــو الخطاب الذي ينطلق من نهاية الفلسفة، لكي يؤسس خطابا حول النهايات، وبالـــتالي يـــريد أن يؤسس خطابا أبوكاليبسيا بصدد العالم في الإشارة إلى (نموذج الخطابـــات السائدة حول نهاية التاريخ، نهاية الشيوعية...). أما خطاب النهاية في الفلـــسفة فهـــو يحيل على الأسس الفلسفية التي أسست لما يمكن تسميته بالقيامة الحديـــثة Apocalypse moderne (موت الله، موت الإنسان، نهاية الفلسفة) وقد وضع هذه الأسس فلاسفة أمثال: "ماركس، نيتشه، هايدغر..." الخ.

لقد تحدث "هايدغر" عن نهاية الفلسفة، ولكنه تحدث أيضا عن مهمة التفكير، إذ يتساءل عن شيئين متلازمين: بأي معنى نتحدث عن نهاية الفلسفة؟ وما هي المهمة المتبقاة للفكر بعد نهاية الفلسفة؟ وبالتالي فنهاية الفلسفة، لا تتخذ عند "هايدغر" معنى بسيطا، أي "معنى محض سلبي، باعتباره يحيل على التوقف – توقف سيرورة – أي على التلف والعجز".

ليست النهاية توقفا لمسار الفلسفة ولا عجزا عن الاستمرار في المسير. فإذا كانت الفلسفة، تحديدا عند "هايدغر"، عبارة عن ميتافيزيقا تفكر في الوجود من خلال نظرها في الموجود، فعبارة "نهاية الفلسفة" تعني اكتمال الميتافيزيقا parachèvement، وليس كمالها perfection. بالإضافة إلى ذلك فكلمة النهاية تحيل – في الألمانية – على كلمة المكان، حيث تصبح نهاية الفلسفة هو ذلك المكان الذي يتجمع فيه كل تاريخها. فاكتمال الميتافيزيقا، تجعل الفلسفة تتخذ نهايتها وتحتل مكانها في عصر يشهد انتصار عالم تقنوي، تسود فيه نظرة علمية للإنسانية كما هي فاعلة في الوسط الاجتماعي. إن الإحالة الدلالية لكلمة النهاية على المكان هي التي تجعل لكلمة النهاية دلالة أخرى، ألا وهي وضع الحدود limites، فالأمر يتعلق لا بانتهاء الفلسفة ولكن بنهاية الفلسفة، عند تخوم وحدود معينة. ذلك أن فكرنا وتساؤلاتنا ليست سوى إسقاط لمشاريعنا ومتطلباتنا، نضعها أمامنا، لكي تمثلنا وتأوينا وتحمينا، إننا نقف مشلولين في مكان ما أمام حدود مليئة بالعقبات، حيث لا نستطيع أن نضع ما يحمينا، إننا في مكان إحراجي معرضين فيه للفضح وللعري (Luc Ferry et Alain Renaut: 2001, 75).

إن نهاية الفلسفة، مكان الفلسفة، حدود الفلسفة يمكن أن تقرأ باعتبارها تحيل على مأزق في المشكل، في الحماية. أمام هذا الوضع الإحراجي حسب "دريدا" وبالتالي أمام اكتمال الفلسفة، حسب "هايدغر"، يصبح من مهام الفكر الفلسفي الاستعداد وليس التأسيس وهذا يعني أن على الفلسفة أن تتخلى عن النزعة النبوية، المتمثلة في التكهن بالمستقبل، لكي تنخرط في إيقاظ استعداد الإنسان من أجل عالم ممكن، غير واضح المعالم، وغير يقيني قدومه، ولكنه محتمل وممكن. لذا لاحظ Luc Ferry "أن الفكر المعاصر توقف عن أن يكون فكرا نسقيا ونبويا،

لكـــي يصبح عبارة عن فكر تأملي نقدي، وهذا ما يفقد الفلسفة جزءا من بريقها، ألا وهو محبة الحكمة" (Luc Ferry et Alain Renaut: 2001, 77).

وبالـــتالي فالنـــزعة الإسكاتولوجية المدججة بخطاب النهايات، ليست سوى نـــزوع نحو كلية منغلقة، ينتفي فيها التنوع ويبرز فيها التصدع والخلخلة، إن هذه النظـــرة الإسكاتولوجية تفترض وجود حقيقة خالدة في العالم الآخر الجديد، الذي يتأســـس بعـــد القيامة، إنه عالم الخلود، حيث ينتهي الموت، ينتهي الفناء: إن هذا العـــالم الخالـــد ليس شيئا آخر سوى عالم الليبرالية الجديد، عالم العولمة. كما أن خطـــاب نهايـــة الـــتاريخ، يتقنع من أجل إخفاء حقيقته كخطاب معاد للخلخلة الماركـــسية، وللتاريخ الشامل. فالخطاب المهيمن، والذي يتلذذ بالحديث عن نهاية المجـــتمعات المبنية على النموذج الماركسي، هو خطاب يبدو ظاهريا، منسجما، إلا أنـــه خطـــاب دوغمائي، يسكنه الخوف من طيف الشيوعية، الذي يمكن دائما أن يعـــود، بل يجب علينا أن لا نجعله يعود. لقد كان في الماضي، يشكل طيفا مقبلا؛ وفي الحاضـــر، يعـــتقد البعض أنه طيف مضى، وعلينا الاحتياط من رجوعه (علاء طاهر، 2005: 192). لهذا ينبغي تهويل يوم القيامة، نعجل فيه بالإعلان عن النهاية، عـــن الموت. إن هذه النـــزعة الإسكاتولوجية تريد أن تنتصر لحقيقة خالدة، ولعالم غـــير فان. إن الأمر يتعلق بإيديولوجية رأسمالية ليبرالية جديدة منتصرة، ينظر إليها كلحظـــة شمولية، كونية تنبني على "اختيارات مزعومة، هدفها التبشير بالديمقراطية الليـــبرالية باعتبارها أصبحت المطمح الوحيد السياسي المنسجم، الذي يجمع مناطق وثقافـــات مختلفة" (علاء طاهر، 2005: 192). لهذا صاغ "هايدغر" سؤالا متقدما، لـــه دلالة في وقتنا الراهن، حيث قال: "هل ستتحطم هذه الحضارة العالمية قريبا، أم أنهـــا ســـتعزز لمدة طويلة وذلك من خلال تغيير مستمر، يغدو فيه الجديد محتلا إلى الأبـــد مكانة الجديد" (عمر مهيبل، 2007: 270)، أي من خلال إغراق العالم في فلك الخلود.

إن هـــذا العالم الجديد (بنظامه العالمي الجديد)، هو سعي نحو ترسيخ انسجام يـــزعم أنـــه لم يـــسبق له مثيل، يعتمد في آلياته الكليانية على إعلان حرب ضد الماركـــسية، لأنهـــا الطـــيف، حسب "دريدا"، الذي يهدد كليته المغلقة، ويهدد انـــسجامه. إن عـــولمة العالم، ليست كما يشيع لذلك خطاب العولمة، عبارة عن

سيرورة عادية، ومرحلة نهائية من مراحل التطور، بل هو في الأصل، نـــزعة كليانة تقوم أساسا على إسكاتولوجيا للأزمات ووضع حد للإيديولوجيات.

علـــى اعتبار إمكانية تكثيف هذه التحولات العالمية في عبارة صدمة التاريخ، هـــذه الـــصدمة الـــتي يمكن تلمس تجلياتها على المستوى السياسي: حيث عملت الأحداث التي شهدها العالم بعد الحرب العالمية الثانية (النازية والستالينية والليبرالية الجديدة) على وضع الفلسفة والفلاسفة موضع الضحايا، بما أنهم كانوا غير قادرين علـــى مـــنع حـــدوثها ولا التنبؤ بها، بل لم يكونوا على علم بها... بل وأن بعض الفلاســـفة، كما أشار إلى ذلك Christian de La Campagne، كانوا متورطين فيها (إبراهيم محمود، 2007: 655).

وعلـــيه، يمكـــن القول أن هاته الإسكاتولوجيا، التي ظهرت في صلب رحم الفلـــسفة، والـــتي تحدثت عن نهاية الفلسفة، كانت نتاجا لانهيار ما يمكن تسميته بالفلـــسفة الكونية، كما كانت مولدة لكف الفلسفة عن أن تكون وعدا تتمسح بمسحة نبوية حيث التكهن والتبشير بإنسانية محتملة، وداعية لإعادة النظر في ارتهان الفلـــسفة بالثورة. خاصة إثر انهيار الإمبراطورية السوفيتية، الذي بخر الآمال المعلقة علـــى الثورة التاريخية المشيدة لعالم مثالي. مما جعل الفلاسفة يتخلون عن الرغبة في تغـــيير العـــالم، مـــن أجل العودة إلى السعي نحو محاولة فهمه وتفسيره. إن صدمة الـــتاريخ، هـــنا، تكمن في تحول الإنسان من منتوج اجتماعي (تاريخي) إلى منتوج بيولوجي، وتحويل وجهة التحكم من حقل التاريخ إلى حقل البيولوجيا.

ومـــع ذلك، ومن خلال التفكير في التساؤلات الآنية، هناك سؤال آخر بات يفرض نفسه: يخص الجدل، والحوار الجديد، بين الفلسفة والعلم والأخلاق، والذي أضـــحى حالـــيا، يشكل جسورا جديدة بين الثقافات والحضارات الإنسانية، فهل يُفـــضي في نهاية المطاف، إلى عرقلة تطور البحوث العلمية، في ميادين علوم الصحة والحياة، وهي ميادين، يسعى المشتغلون بها، من حيث المبدأ على الأقل، إلى تحسين ظروف حياة الإنسان، والتخفيف من معاناته وآلامه؟ وهل يجب الحفاظ على روح الـــتفاؤل، والاســـتمرار في الاعتقاد بأن تلك الإشكالات الأخلاقية عابرة... وأن العلـــم وهـــو يـــتقدم، يشق طرقا جديدة في مسيرة تحرُّر الإنسان، أكثر مما تفعله السياسة؟ (مصطفى قباج، 1990: 16).

فما مدى حضور وحدود تأثير الفلسفة في مجريات التحولات العالمية، ومدى تـــأثير التحولات العالمية في مسار الفلسفة؟ إن التداولات الجارية والمقتصرة أغلبها علـــى مواقف نضالية... من مثل الدفاع عن الفلسفة، وضرورة الفلسفة، والحاجة إلى الفلسفة، وعن قيمة الفلسفة... إنها مواقف يتكرر طرحها بين الفينة والأخرى، وهي كثيرا ما تخفي (هاجسا قلقا وملحا) يتعلق بنهاية الفلسفة، وذلك في كل مرة يختفي فيها الموضوع الأصلي. مما يبعث على القول، إن الفلسفة والتحولات العالمية تتضمن فكرة نهاية الفلسفة.

## الفلسفة والمهام الملحة:

لكـــن ورغـــم مأساوية الموقف... هناك ظاهرة ثقافية لافتة للنظر مع مطالع الألفـــية الثالثة. قَوَّت من حظوظ عودة جديدة للفكر الأخلاقي، وتصدُّرِه لواجهة الفكـــر المعاصر، وأسهمت في خلق أشكال عديدة من الحوار والجدل بين الأخلاق والعلم. فإذا كان التقدم العلمي، في الطب، وعلوم الحياة، والهندسة الوراثية، يُنعِشُ الآمال، في إمكانية تحسين حياة الإنسان وشروطها، فهو في الوقت ذاته، بات يخلق إشكالات أخلاقية جديدة، فريدة من نوعها في تاريخ البشر، ولا عهد للمجتمعات البشرية بها من قبل. كما أن انعكاساتِه تهدِّد بزعزعة مبادئ وقيم أخلاقية...

يتـــساءل "هابـــرماس" في بداية كتاب "مستقبل الطبيعة الإنسانية نحو نسالة ليـــبرالية" (يورغن هبرماس، 2006، 150). هل يحق للفلسفة أن تدافع عن التحفظ الذي تتخذه تجاه مسائل جوهريّة تتعلق "بالحياة الصالحة" أو بما يجب على الإنسان عمله كي لا يفسد حياته؟ وهل يمكن للفلسفة أن تتخذ ذات التحفظ تجاه المسائل المطروحة في أخلاقيات النوع الإنساني (أو الجنس البشري؟). يطرح هابرماس هذا الـــسؤال وهـــو يعي أن الفلسفة، خصوصا بعد الميتافيزيقيا، لم تعد تزعم أنها تقدم أجوبة لها قوّة الإلزام عن أسئلة تتناول نمط الحياة الشخصية أو حتى الجماعية.

ولـــذا فإن السؤال الفلسفي الأصيل عن الحياة التي يجب أن تعاش، هو سؤال يـــتجدد من داخل خطاب النهايات على اعتبار أن التقنيات الجديدة ستفرض علينا نقاشـــا عامـــا يتناول الفهم الذي يجب تكوينه عن أشكال الحياة الثقافية بوصفها أشكالا ثقافية. وبالتالي، مما تركته "البيوتيقا" على الفكر الفلسفي، هو مساهمتها في

تحقيق حلم كان وما يزال يراود بعض الفلاسفة، وهو انتقال هذا الفكر من النخب والجامعات، إلى اهتمام الفئات العريضة للمجتمع. وبالفعل، تبلور الفكر الأخلاقي الجديد خارج الجامعة، ما دامت هذه الأخيرة تريد أن تكون الفلسفة نخبوية وترفض أن تكون غير ذلك، ومن جهة أخرى، فإن الفكر البيوتيقي، على خلاف الفكر الفلسفي السابق، لا يرتبط برموز معينة، ولا حتى بمجال معرفي معين، فكل التخصصات، بل وكل الفئات الاجتماعية تشارك في مناقشة القضايا البيوتيقية، وليس الأطباء وحدهم ولا البيولوجيين وحدهم، بحيث أصبحت أخلاقيات الطب والبيولوجيا وما يرتبط بها من قضايا علمية وقانونية ودينية واقتصادية وفلسفية، همّا يحمله الجميع.

إذ نجد مساهمة الفكر البيوتيقي في إبداع الكثير من المفاهيم الجديدة، فإلى جانب المفهوم المركزي وهو مفهوم البيوتيقا نفسه، نجد مفاهيم أخرى مثل مفهوم البيو/قانون = Bio droit، وهو ما يعرف بـ: "الفكر القانوني الخاص بقضايا الطب والبيولوجيا والصحة". ومفهوم العلم التقني = Techno science. زيادة على إثراء مضامين بعض المفاهيم الأخلاقية الأساسية والمصطلحات القديمة، مثل مفهوم الحق والواجب والمسؤولية والإحسان، ومفاهيم أخرى ذات ارتباط بعلاقة الطبيب بالمريض مثل مفهوم الموت الرحيم والإنجاب الاصطناعي والتوالد الجنسي والجسدي ومفهوم تحسين النسل...، ويعتبر مفهوم "حقوق الإنسان" من أهم المفاهيم التي تم إغناؤها في هذا الإطار، حيث توجه الاهتمام إلى مدى احترام هذه الحقوق في ميادين الطب والبيولوجيا والصحة، بالإضافة إلى حقوق الأجيال الإنسانية القادمة، وعلى رأسها حق الحفاظ على هويتها وتنوعها، هذا الحق الذي يتعرض حاليا للانتهاك، وخاصة في إطار التصرف في الجينات الحاصل في مجال الهندسة الوراثية وما يصاحب ذلك من تفكير في استنساخ الإنسان.

وإذن يتجلى الحضور الفعلي للفلسفة في الفكر البيوتيقي من جهة أخرى، في تشكيلة اللجان الأخلاقية التي صاحبت نشأته وتطوره، يعد الفلاسفة من أبرز أعضاء هذه اللجان، وهكذا ظهرت شخصية علمية جديدة هي "عالم الأخلاق = L'éthicien" وهي شخصية علمية ترتبط بالأخلاق كفكر فلسفي وترفض الارتباط بها كفكر ديني، وإذا كانت الأخلاق فرعا من فروع الفلسفة منذ

القـــديم، فـــإن الـــتطور الأخلاقي الحالي يفرض علينا – رغم ذلك – أن نطرح الـــسؤال الـــتالي: هل ستبقى الأخلاق في وضعية التبعية للفلسفة أم أنها ستنفصل عنها كعلم جديد؟ خاصة وأن هناك مؤشرات قوية تدل على ذلك، أهمها التمييز الـــذي نجـــده حاليا في الدراسات الأخلاقية بين "Morale" و"Ethique" وتزايد اســـتعمال المصطلح الثاني على حساب الأول، بالإضافة إلى حلول عالم الأخلاق محل فيلسوف الأخلاق.

وعملـــيا، إذا كانت التكنولوجيا الحيوية إحدى المظاهر الحاسمة للتقدم التقني الذي يشهده عصرنا، فإن ثمة سؤالا ينفتح على أفق فلسفي لا يقل أهمية وقيمة عن الـــسؤال الأخلاقـــي، وهو ذلك المتعلق بنمط العقلانية الموازية للتقدم التقني الذي تفتـــتحه الـــثورة البيوتقنـــية في أفق الألفية الثالثة؟ هذا السؤال يرتبط في وجه منه بـــصيرورة الكائن المعاصر من حيث هي صيرورة ترتسم في عالم يعيش تحت التأثير المباشـــر والعمـــيق لقوة التقنية المرتبطة بمتطلبات الإنتاج الاقتصادي، لمنطق السوق الخـــالص كمـــا تشهد على ذلك اتجاهات البحث اليوم في نطاق ما أصبح يعرف بالبـــيو-تكنولوجـــيات. إن تـــتويج هذا الارتباط، اقتضى ذلك الإسراع في اتخاذ إجـــراءات محلية ودولية للانتقال من الأخلاق إلى القانون وتحويل المبادئ الأخلاقية المتفق عليها إلى قواعد قانونية سارية المفعول (ناهدة البقصمي، 1993: 22).

في هـــذا الـــصدد بقي أن نشير إلى أن الفلسفة تدين للبيوتيقا بما أتاحه الفكر البيوتيقي من مناقشة عميقة لقضايا فلسفية أصيلة ترتبط بالذات والشخص والحياة والمـــوت والوجود والمصير والعلاقة مع الآخر... الخ، وذلك في وسط جميع الفئات الاجتماعية وليس وسط الاختصاصيين وحدهم. وبناء عليه، لم تعد الأخلاق مجرد قضايا معيارية مرتبطة بالضمير، بل أصبحت ضوابط اجتماعية وحتى دولية – ذات طابـــع إلزامي – تملك أحيانا قوة القانون، وذاك ما يقصده الباحثون حين يتكلمون عـــن: "الانـــتقال من الأخلاق إلى القانون" أي أن الأخلاق تم إخراجها من دائرة ضـــمائر الأفراد إلى دائرة المؤسسات الاجتماعية المختصة، وبذلك تم الانتقال من الأخـــلاق كقـــيم معيارية تختلف باختلاف الأفراد والمجتمعات، إلى قواعد أخلاقية مـــتفق عليها عالميا، أو على الأقل متفق عليها من طرف النخب العالمة أو المثقفة في العـــالم، أو مـــا اصـــطلح على تسميته بـــ: "لجان الحكماء" في العالم. إن اللجان

الأخلاقـــية تضعنا أمام فكر أخلاقي/قانوني جديد، ينحو نحو الصبغة العالمية، عالمية توازي عالمية حقوق الإنسان (Jacqueline Russ. 1995:65).

## خاتمة

نخلـــص على ضوء ما قدمنا، إلى أن الفلسفة بمباحثها القديمة لا مستقبل لها، لكـــن الفلـــسفة بمعـــنى الحركة العقلية لفهم الأشياء، يمارسها العاقل كل لحظة، فالاقتـــصاد لا بد له من فلسفة، والتربية لا بد لها من فلسفة، وهكذا بقية جوانب الحياة، بل حركة الإنسان في محيطه ومجتمعه ووظيفته تنطلق من بعد فلسفي، الذي لا يتحـــرك بأي نظرة فلسفية هو غير العاقل، أو مقلد وحتى هذا المقلد يمارس فيها ضربا من الفلسفة.

إن الفلـــسفةَ ليست حرة في التخلف عن هذه الرؤية الفلسفية الجديدة للعالم، الـــتي باتت تبشِّرُ بها الحالة الراهنة لتطور العلوم والتكنولوجيا، والمعارف الإنسانية المعاصـــرة عمـــوما، إن الفلـــسفة الآن في طور المخاض والتبلور. نتوقع أن تكون محاولاتهـــا دءوبـــة لفهم واستيعاب التحوُّلات الكبرى، ودلالات الإنجازات الهائلة للـــبحث العلمـــي، علـــى الصعيد العالمي، وآثارها على أحوال الوضعية الإنسانية البشرية. وأنها ستتفتح ربما على السياسية، أكثر مما فعلته في السابق، على الأقل على الموضوعات الجديدة التي أصبحت تطرح نفسها على الفكر الإنساني بإلحاح، ولعل أبرزها الآن، علاقة الأخلاق بالسياسة، ودلالة هذا الخطاب المتنامي عن الديمقراطية وحقوق الإنسان.

إن الفلسفة في أي عصر ليست دينا ولا عقيدة بل هي مجرد طريقة في التفكير لـــذلك فإنهـــا لا تستهدف أن تحل محل السائد ولكنها تنتقده... لقد اعتبر "ألان باديو"، انتشار وتداول أطروحة نهاية الفلسفة أن الفلسفة لم تعد قادرة على تنظيم نفسها كوعد، إذ أصبحت تشعر بضعف تأثيرها مقارنة مع مجالات أخرى: فلا هي تنـــتج تغيير العالم كما يحدث في السياسة (...)؛ ولا هي تنتج تقنيات، كما تفعل العلوم؛ ولا هي تثير إعجابا مشتركا بين الناس، كما يحدث ذلك في مجال الفن.

إن مهمـــة الفلسفة، بما هي مهمة نقدية اتجاه الحاضر، تسعى نحو فهم الذات، مـــن أجـــل فهم الحاضر. تجعلنا نقرأ هذه التحولات العالمية التي تعيشها ذواتنا في

الحاضر، نقرأها بحس تاريخي – بالمعنى العام وليس بالمعنى الشامل المؤسس "للقيامة" (فردريك نيتشه، ب. س، 39).

إن مهمة الفلسفة، تتوخى هدم خطاب العولمة، بما هو مطمح يود جعل التحولات دالة على زمن العالم الذي نعيشه، زمن يجب أن نقرأ فيه كل التحولات باعتبارها ليست سوى تجليات لعالم يرسم قدر الحضارات ومصير الإنسانية مصيرا واحدا خالدا، كمرحلة نهاية من مراحل التطور. فالعالم الأفضل الأبدي الذي ينتظره الإنسان، حسب هذا المنظور، ليس هو النموذج الذي عاش فيه سابقا (المجتمع الإنساني ذو الدلالة الاشتراكية ولا حتى النموذج الرأسمالي سابقا) وهذا العالم الجديد، لا يمكن أن ننظر إليه وفق ثنائية الخير والشر، بل هو العالم المفروض وكفى، العالم الوحيد الذي يمكن أن نعيش ونتعايش فيه. إن مهمة الفلسفة تكمن في خلخلة وهدم هذا الفردوس الذي يزعم الخلود، فلا عودة للعالم المنتهي.

وما على الفلسفة الآن إلا أن تراجع طبيعتها ومفهومها وتعريفاتها التقليدية ومناهجها وأساليب رؤيتها إذا شاءت أن تصبح «حكمة عالمية» كما سماها "كانط"، أو «حكمة خالدة» كما وصفها "ليبنتز وياسبرز وهكسلي" وغيرهم. وهنا لا يقتصر الأمر على تغيير الوصف والتسمية، وإنما يتعداه إلى المهام الجديدة التي تلزمها اليوم أكثر من أي يوم مضى بأن تكون عالمية وإنسانية، وأن تتحول – على الأقل في المجالات المختصة بالقيم والغايات الأخلاقية والمثل والأحلام والأهداف المستقبلية التي يمكن الإجماع عليها – إلى حكمة مناضلة، تتسلح بأسلحة النقد والمقارنة لكل ما يعطل العقل ويغيب الوعي ويشوه الإنسانية...

كما عليها أخيرا أن تحافظ على حريتها لكي تستطيع الدفاع عن الحرية وإلا سقطت في الهاوية التي سقطت فيها فلسفات سيئة الحظ تبنتها سلطات إرهابية (كما حدث أخيرا للنظم الأيديولوجية المتحجرة والنظم الاستبدادية المتخلفة)... إن الفلسفة تعمل على الدوام في دائرة الممكن الذي يبدو أحيانا على صورة المستحيل. وفلسفة المستقبل العالمية والإنسانية هي أخطر تحد يواجه المشتغلين بها والمنتمين إليها. إنها من قبيل الخطاب الممكن.

**الهوامش:**


1. Luc Ferry et Alain Renault, *Heidegger et les Modernes*. Ed. Poche - 2001.
2. عـــلاء طاهـــر: نهايـــات الفضاء الفلسفي: الفلسفة الغربية بين اللحظة الآنية والمستقبل، ط1، القاهرة، مصر، مكتبة مدبولي، 2005.
4. عمر مهيبل: من النسق إلى الذات: قراءات في الفكر الغربـــي المعاصر. – ط. 1. – بيروت، لبنان: الدار العربية للعلوم، 2007.
5. إبراهيم محمود: النقد والرغبة في القول الفلسفي المعاصر – ط. 1. – اللاذقية، سوريا: دار الحوار، 2007.
6. هابرماس يورغين: مستقبل الطبيعة الإنسانية نحو نسالة ليبرالية، المؤلف، ترجمة: د. جورج كتّوره، ط. 1. – بيروت، لبنان: المكتبة الشرقية، 2006.
7. Jacqueline Russ: *La pensée éthique contemporaine*, Que sais-je? P.U.F, 1995.
8. ف. نيتـــشه: الفلـــسفة في العصر المأساوي والإغريقي. ترجمة: سهيل القش. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر.
9. مـــصطفى القـــباج: تـــدريس الفلسفة والبحث الفلسفي في الوطن العربـــي (اجـــتماع الخبراء بمراكش يوليو 1987)، ط1، 1990، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
10. ناهـــدة البقصمي: الهندسة الوراثية والأخلاق، سلسلة عالم المعرفة، عدد 174، يونيو 1993.